الفصل الثامن والعشرون بعد المئة

القصص

والقصص ، مظهر من مظاهر الفكر الجاهلي ، أشير اليه في القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند الجاهليين . ودراسته تمكـــن الدارس من تحليـــل عقلية صاحب القصص ، وفهم عقلية الزمن الذي شاع فيه . وقد ورد في المؤلفـات الاسلامية شيء منه ، وفي بعضه ملامح يمكن ارجاعها الى عناصر أعجمية : دينية ، وغير دينية ، تسرب الى الجاهليين من اتصالهم بالأعاجم ، واتصال الأعاجم بهم .

والقص البيان ، والقاص من يأتي بالقصة على وجهها ، كأنه يتتبـــع معانيها وألفاظهـــا . وقيل : القاص يقص القصص لأتباعه ، خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً . وقد كان القص شائعاً متفشياً بين الجاهليين والاسلاميين ، وكانوا يقبلون عليه اقبالاً شديداً ، ومن هنا ورد في الحديث « ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا . وفي رواية لما هلكوا قصوا ، أي اتكلوا على القول وتركوا العمـــل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس ، لما هلكوا بترك العمـــل أخلدوا الى القصص »[1] . ولما نزل القرآن : « قالوا : يا رسول الله : لو قصصت علينا ، قال : فنزلت : نحن نقص عليك أحسن القصص »[2] . وذكر ان أصحاب رسول الله سألوه أن يقص عليهم ، فنزل : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ،

---

١ تاج العروس (٤/٤٢٢) ، (قصص) .
٢ سورة يوسف ، الاية ٣ ، تفسير الطبري (١٢/٩٠) .

« من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم » . وورد انهم قالوا له : « يا رسول الله ! حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص » فأنزل الله الآية المذكورة[1] . وفي هذا الالحاح على الرسول بأن يقص عليهم ، دلالة على مدى حب الجاهليين واعجابهم بالقصص .

وللجاهليين غايات من الاستماع الى القصص ، منها : العبرة والاتعاظ . والى ذلك أشير في القرآن الكريم : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »[2] . وقد كان في مكة وفي غيرها قوم يقصون على الناس ويعظونهم ، ولما جاء الاسلام كانوا على عادتهم يقصون لإثارة العقول الى أنباء الماضين وأخبار السالفين، ولإثارة تفكيرهم في الكون وفي الخلق وفي شؤون الحياة، كالذي يظهر من القرآن الكريم: « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »[3] و « نحن نقص عليك أحسن القصص »[4] و « تلك القرى نقص عليك من أنبائها »[5] . ويدخل في هذا النوع القصص الذي يدخلونه في باب (الحكمة) ، ومعناه القصص التعليمي ، الذي يتعظ به ، ويستفاد منه ، إذ يعد دروساً تعلم الانسان في حياته وترشده الى النجاح ، ويشمل قصص الماضين ، ما قاموا به من خير ، وما عملوا في أيامهم من شر ، فأصابهم من أجله الهلاك وسوء المصير ، وقصص الأشخاص ، أما القصص المروي على ألسنة الحيوانات على نمط قصص (كليلة ودمنة) ؛ فإننا لا نجد منه مادة غزيرة في القصص المروي عن الجاهليين ، وهو قليل المادة أيضاً في الأدب الاسلامي ولا سيما في القصص الطويل . وقد نجد بقايا قصص على ألسنة الحيوانات مروياً في كتب الأدب ، لكنه من النوع القصير الذي لا يمثل نفساً طويلاً في القص . وأغلب الظن انه منتزع من قصص قديم ، فقد طوله ، بسبب قدمه ، فبقيت منه هذه البقايا .

ومن أبواب القصص ، المقال على ألسنة الحيوانات ، كالقصص المقال على لسان (النعامة) ، من انها ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين . والقصص

---

١ تفسير الطبري (١٢/٩٠) .
٢ يوسف ، الاية ١١١ .
٣ الاعراف ، الاية ١٧٦ .
٤ يوسف ، الاية ٣ .
٥ الاعراف ، الاية ١٠١ .

الذي وضعوه عن الغراب ، وعن الضفدع ، والهدهد ، والهديل ، وغير ذلك مما يميل اليه العامة بصورة خاصة ، لما يتركه من أثر في نفوسهم[1] .

ومن القصص ، قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل والأيام ، ويلعب قصص الأيام الدور الأول في هذا القصص ، لما له من أثر في العصبية . وكان هذا القصص من أحب القصص الى نفوسهم ، وقد زوّق ونمق ، وتولى قصه قصاصون كانت لهم مواهب خاصة وقابلية على القص والتأثير في النفوس ، وكان أصحاب الرسول حين يتسامرون يتناشدون الشعر ويتذاكرون الأيام ، جرياً على سنتهم في الجاهلية ، وقد استمر هذا القصص الى عهد قريب ، ولا زال معروفاً في القرى وفي بعض الأقطار العربية ، لا سيما في أيام رمضان ، حيث تقرأ قصص أبو زيد الهلالي وقصة عنترة وغيرها في المقاهي ، يقرأها قصاصون متخصصون بأسلوب مؤثر جذاب ، يتلاعبون به في عقول السامعين ، ويثيرون فيهم الحماس ، ينصتون بكل خشوع الى صوت القاص ، يريدون منه سماع المزيد من الأخبار .

وفي قصص أهل الأخبار المنسوب الى الجاهلية ، قصص عن الأسفار وعن مشقات السفر وعن الأهوال التي كان يلاقيها المسافرون في ذلك العهد من الجن والسعالى والغيلان ، وقد رصع بأبيات من الشعر وبقصائد أحياناً ، في وصف تلك المخلوقات الرهيبة المفزعة ، ولم ينس بعض هذا القصص من ايراد شعر لها في محاورة الأشخاص الذين تعرضوا لها ، تجد فيه الجن والسعالى والغيلان ، تنظم الشعر بلسان عربي مبين ، وتجيب فيه الشعراء بشعر مثل شعرهم ، قد تظهر رقة وأدباً فيه ، مع ما عرف عن هذه القوى من الميل الى الأذى والشر .

وفي قصصهم قصص له أصل تأريخي ، لكنه لم يحافظ على نقاوته وأصله ، وانما غلب عليه عنصر الخيال فحوّله الى أسطورة ، رصعت بالشعر في الغالب ، وبالجنس ، لتثير الغرائز ، فتقبل الأنفس على سماعها ، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس[2] ، وقصص الزباء ، والتبابعة ، والأقوام الغابرة ، حيث تجد قصصهم في كتب الأخبار والأدب .

وفي أبواب القصص ، باب للمجون والخلاعة ، وأحاديث الهوى والتشبب .

---

١ فجر الاسلام (٦٦) ، (١٩٦٥ م) .
٢ المحاسن والاضداد (١٣٨) .

وهو باب يقدم على سماعه الشبان ، طلاب هذا الفن في هـذا الدور من أدوار الحياة ، أما الشبيبة ومن تقدمت بهم السن ، فإن الجنس ، يكون قد ابتعد عنهم وتركهم في الغالب ، وما تمسكهم به وهم في أرذل العمر ، إلا من باب التذكر بأيام الزمان ، وذكريات الشباب ، لتطرية العمر ، والترويح عن كربة التقدم في السن .

والقاص من الشخصيات المحببة الى نفوس الجاهليين ، يقص عـلى أبناء حيّه القصص المسلية ، مستمداً مادته من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتأريخية المأثورة عن العرب،أو عمن جاورهم . ومن ذلك قصص الأقوام القديمة التي بقيت ذكرياتها في أذهان الجاهليين، وقصص الملوك مثل الزباء ، التي كيفت قصتها ، وابتعدت عن التأريخ وقصص جذيمـة الأبرش ، وقصير ، وعمرو بن عدي ، والتبابعة وغير ذلك من قصص،له أصل تأريخي ، لكنه تغير وتبدل حتى صار من الأساطير . وهو يصلح أن يكون اليوم موضع دراسة خاصة للوقوف على مقدار عناصر الابتكار والخيال فيـه ، ومقدار التحوير الذي ألمّ به ، وسببه ومن أدخله عليه من جاهليين أو مسلمين .

وقصص النوادر والنكات من القصص المعروف عند أهل الجاهلية . وقد اتخذ الملوك والأشراف لهم ندماء عرفوا بإغراقهم في قول الملح والنوادر والأمور الغريبة المضحكة ، حتى اشتهر أمرهم بين الناس ، وحتى بالغ الناس في نسبـة النوادر اليهم ، وحوّلوا بعضهم الى شخصيات أسطورية ، من كثرة ما تقولوا عليهم وما نسبوه اليهم . ومنهم من سجلت كتب أهل الأخبار والأدب أسماءهم ، لما حصلوا عليه من شهرة بين الناس في أيامهم . منهم (سعد) المعروف بـ (سعد القرقرة) هازل (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، كان يضحك منه[1] . ذكـر أنه كان من أهل (هجر) ، فدعا النعمان بفرسه اليحموم ، وقال له : اركبـه واطلب الوحش ، فقـال سعد اذن والله أصرع . فأبى النعمان إلا أن يركبه . فلما ركبه سعد نظر الى بعض ولده قال : وا بأبى وجوه اليتامى ، ثم قال :

نحن بغرس الـوديّ أعلمنا منّا بركض الجياد في السدف[2]

---

١ تاج العروس (٣/٤٨٩) ، (قرر) .
٢ تاج العروس (٦/١٣٦) ، (سدف) .

وفيه قال الشاعر (أبو قُردُودة) ، وكان (سعد القرقرة) قد أكل عند النعمان بن المنذر مسلوخاً بعظامه :

بين النعامِ وبين الكلب منبته وفي الذئب لـه ظئر وأخوال[1]

ومنهم (النعمان بن عمرو بن رفاعة بن الحرث) من (بني النجار) من يثرب ، المتوفى في أيام (معاوية) . كان هازلاً ومازحاً لطيفاً . ذكر أنه كان لا يدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء بها الى النبي ، فيقول ها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعمان بثمنها أحضره الى النبي ، وقال : اعطِ هذا ثمن متاعه ، فيقول : أولم تهده لي ! فيقول : إنه واللهِ لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه . ودخل أعرابي على النبي ، وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة للنعمان لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا الى اللحم . ففعل . فخرج الأعرابي وصاح واعقراه يا محمد ! فخرج النبي ، فقال : من فعل هذا ؟ فقالوا النعمان فاتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد. فأشار رجل الى النبي حيث هو فأخرجه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلّوك عليّ يا رسول الله ، هم الذين أمروني بذلك . فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ، ثم غرمها للأعربي . وروي أن (مخرمة بن نوفل) كان قد كبر وقد عمي،فقام في المسجد يريد أن يبول ، فصاح به الناس المسجد المسجد ! فأخذه نعمان بيده وتنحى به ، ثم أجلسه في ناحية أخرى من المسجد فقال له : بل ههنا . فصاح به الناس . فقال : ويحكم فمن أتى بي الى هذا الموضع ! قالوا : نعمان . قال : أما إن لله عليّ إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت . فبلغ ذلك نعمان . فمكث ما شاء الله ، ثم أتاه يوماً وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد . فقال لمخرقه : هل لك في نعمان . قال : نعم . فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان ، وكان إذا صلى لا يلتفت . فقال : دونك هذا نعمان فجمع يده بعصاه فضرب عثمان فشجه ، فصاحوا به ضربت أمير المؤمنين[2] .

---

١ الحيوان (١/١٤٧) .
٢ الاصابة (٣/٥٤٠) ، (رقم ٨٧٩٠) .

وروي ان (أبا بكر) خرج تاجراً الى (بصرى) ومعه (نعيمان) و (سويبط ابن حرملة) ، وكان (سويبط) على الزاد ، فجاءه (نعيمان) ، فقال : أطعمني . فقال : لا،حتى يجيء (أبو بكر) ، فقال : لأغيظنك ، فذهب الى ناس جلبوا ظهراً . فقال : ابتاعوا مني غلاماً عربياً فارهاً ، وهو ذو لسان ولعله يقول أنا حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليّ غلامي . فقالوا : بلى نبتاعه منك بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال : دونكم هو هذا . فجاء القوم . فقالوا : قد اشتريناك ، فقال سويبط : هو كاذب أنا رجل حر . قالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته فذهبوا به . وجاء أبو بكر ، فأخبر . فذهب هو وأصحاب له فردّوا القلائص وأخذوه . فضحك النبي وأصحابه من ذلك حولاً[1] .

وبعض القصص الشائع المتواتر عن الجاهليين ، مثل قصة يومي البؤس والنعيم، وقصة (شريك) مع الملك (المنذر) ، وقصة (سنمار) وأمثال ذلك ، قصص وان اقترن بأسماء جاهلية ، إلا ان أصوله غير عربية ، دخلت العرب من منابع خارجية ، من منابع يونانية وفارسية ، ونصرانية ، وهو أيضاً من القصص الوارد عند شعوب أخرى ، بدليل وجود شبه ومثيل له في أساطير الأعاجم ، وفي حكايات النصارى[2] .

وقاص ذلك اليوم ، هو أديب الحي ، وأديب القوم ، وهو لا بد أن يكون من أصحاب المواهب والفطنة،وممن رزق موهبة التأثير على القلوب بفضل ما رزق من حسن عرض الكلام وتخريج القصص ، وتنسيقها . واظهار الأدوار البارزة للأبطال ، وعرضها بأسلوب مشوق مرغب ، تنسي السامع كل شيء إلا تتبع الحكاية . ولا بد وأن يُملّح القاص قصصه بادخال شيء من الشعر فيها ، لا سيما شعر الفرسان والحروب والمغامرات .

ولا نعرف من أسماء قصاص الجاهلية أسماء كثيرة،وأشهر اسم نعرفه هو اسم (النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) . (النضر بن الحارث

---

١ الاستيعاب (٣/٥٤٣ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ فجر الاسلام (٦٧) ، (١٩٦٥ م) .

ابن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي)[1] ، وكان من (شياطين قريش) ، أي أذكيائهم ، وممن يؤذون الرسول ، وكان يحدث قريشاً بأحاديث رستم واسفنديار وما تعلم في بلاد فارس من أخبارهم[2] ، ويزعم ان في استطاعته ان يأتي بمثل ما أتى به الرسول من أمر القرآن ، فأشير اليه في الآية : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »[3] ، وذكر ان كل ما ذكر في القرآن من (الأساطير) ، فإنما قصد به (النضر) ، وقد نزلت في حقه ثماني آيات[4] ، تدل على انه كان يتحدى الرسول ويخاصمه ويقول في القرآن انه من صنع محمد ، وكان يأتي بقصص يزعم انه يضاهي بها كتاب الله . وقد أرسلته قريش مع (عقبة بن أبي معيط) الى يهود (يثرب) ليأخذا منهم من أمور التوراة والدين ما يجادلا به الرسول ، فعلموهما ما يجب أن يسألا به ، فجاءا وسألا الرسول وحاججاه ، وقد أشير الى هذه المحاججة في القرآن[5] .

وقد أمر الرسول بقتل (النضر) ، فقتله (عليّ) وهو بالصفراء ، فقالت فيه (ليلى) ابنته ، أو (قتيلة) ابنته ، وهي ابنته في رواية ، أو أخته في رواية أخرى ، شعراً تبكيه وتتوجع فيه على قتله . أوله :

يا راكباً ان الأثيل مظنّة ... من صُبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميّتاً بأن قصيدة ... ما ان تزال بها الركائب تخفق
فليسمعن النضر ان ناديته ... إن كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد الى المنيّة متعباً ... رَسْفَ المقيد وهو عان موثق
أمحمد هأنت ضَنْءُ نجيبة ... في قومها والفحل فحل معرق

---

١ الاشتقاق (٩٩) ، كتاب نسب قريش (٢٥٥) ، ابن هشام (١/١٨٨ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٢ الروض الانف (١/١٨٨) .
٣ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٣ ، الروض الانف (١/١٨٩) ، ابن هشام (١/١٨٩ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) .
٤ ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .
٥ ابن هشام (١/١٩٠) ، (حاشية على الروض) .

ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
فالنضر أقربُ من تركت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق[1]

وورد اسم رجل أدخل للمسلمين القصص الديني ، هو (تميم بن أوس بن خارجة) الداري[2] ، ذكر أنه أسلم سنة تسع من الهجرة ، وأنه كان نصرانياً ، وانه لقي النبي ، فقص عليه قصة الجسّاسة والدجّال . وذكر انه كان يترهب ويسلك مسلك رجال الرهبانية حتى بعد إسلامه ، وانه استأذن الخليفة (عمر) أو الخليفة (عثمان) في أن يذكر الناس في يوم الجمعة ، فأذن له ، فكان يقص في مسجد الرسول . وكان بذلك أول من قص في الإسلام . وروي أنه أول من أسرج السراج في المسجد[3] . وكان قد قدم مع أخيه (نعيم) الداري في وفد الداريين على الرسول منصرفه من تبوك[4] . وكان مقامه في الشام ، وربما وضع القصص على اسمه[5] .

وهذا النوع من التذكير والوعظ والارشاد القائم على الترغيب والترهيب بذكر أساطير الأولين والقصص والحكايات والغرائب والعجائب والقصص المتعلق بالحيوانات أو المدون على ألسنتها، هو نوع من الوعظ الذي كان يقوم به رجال الدين اليهود والنصارى في تهذيب أبناء دينهم وفي ارشادهم الى سواء السبيل، على نحو ما كانوا يتخيلونه ويتصورونه . ومن مدرستهم في الوعظ ، تعلم صاحبنا تميم علمه هذا على ما يظهر .

ويمكن الوقوف على طبيعة قصص (تميم) ونوعيته وعلى درجة ثقافته ومقدار عقليته بالرجوع الى ما نسب اليه من قصص ، وما ورد على لسانه من وعظ . ولكننا لا نجد في الكتب مادة من قصصه تكفي للحكم بموجبها على نوعيته . ولكننا

---

١ البيان (٤٣/٤ وما بعدها) ، الحصري ، زهر الاداب (٢٧/١) ، الاغاني (٩/١) ، العمدة (٣٠/١) .

٢ « تميم بن أوس بن حارثة ، وقيل خارجة بن سود ، وقيل سواد بن جذيمة بن دراع ابن عدى بن الدار ، أبو رقية الداري » ، الاصابة (١٨٦/١) ، (رقم ٨٣٧) .

٣ الاصابة (١٩١/١) ، أسد الغابة (٢١٥/٢) ، ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١) .

٤ الاصابة (٥٣٦/٣) ، (رقم ٨٧٧٠) ، صحيح مسلم ، شرح النووي ، (٤٢٠/٥ وما بعدها) .

٥ مسالك الابصار (١٧٢/١) ، البخلاء (٣١٣) .

لا نستبعد أن يكون قد خلط بين القصص النصراني وبين الأساطير العربية . فقد كان نصرانياً ، يسمع أقوال وعظاظ الكنائس ، فتعلم منهم ، وطبق ما تعلمه في الاسلام .

وذكروا ان (الأسود بن سريع بن حمير (خمير) بن عبـادة بن النزال) التميمي السعدي ، كان قاصاً ، وكان شاعراً مشهوراً ، وهو من الصحابة ، وكان أول من قص في مسجد البصرة . قيل انه مات سنة اثنتين وأربعين[1] . ولعله كان من النصارى كذلك .

ويجب أن نشير الى قاص آخر هو (عبيد بن شرية الجرهمي) ، وان كان من المتأخرين . فقـد كان في أيام (معاوية) ، وقد كان من الملازمين له . وكان الخليفة يحنّ اليه ، ويتلذذ بسماع قصصه عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبـل الألسنة ، وأمر افتراق الناس في البلاد . وهـو شخص لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وذكر (ابن النديم) أنه عاش الى أيام (عبد الملك بن مروان) ، وأن معاوية أمر غلمانه بتدوين ما كان يقصه وينسب اليه . وله من الكتب : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين[2] .

---

١ الاصابة (١/٥٩ وما بعدها) ، (رقم ١٦١) ، الاستيعاب (١/٧٢) ، البيـان والتبيين (١/٦٧) .

٢ الفهرست (ص ١٣٨) .